دخان ابيض .. للمداخن !

قصة بقلم أحمد سويد

لم تكن فريال تتوقع ان تتأزم الامور الى هذا الحد ، وان يستنفر ابوها ، على وجه السرعة ، الاسرة بكامل افرادها ، ويدعوها الى اجتماع طارىء ، وفوق العادة ، للبت في المشكلة الخطيرة .

لقد قال هو كلمته ، فالها بوضوح .. اكد لامها انه يعتبر دخولها الجامعة خروجا على التقاليد قد يعرض شرف العائلة للتلويث ، ولكنه عندما لاحظ أن الام تميل الى مسايرة ابنتها ـ على عادة الامهات ـ آثر ان يدعو « المجمع العائلي » الى الانعقاد ، ليعلن امامه براءته من الاثم الوشيك الوقوع ، وليتخفف من ذلك الجبل الثقيل من المسؤولية الذي ما زال يهد كاهله منذ اكثر من اسبوع .

وتقاطر افراد العائلة واحدا في اثر واحد ، وكان ابوها يستقبل بنفسه كل وافد ، ويقوده بسرعة الى غرفة الاستقبال ، محاذرا ان يتيح له ، حتى فرصة القاء التحية عليها ولو ايماء ـ كأنما يخشى ان يؤثر الاحتكاك بها ، حتى على هذا الشكل العابر ، في الحكم الذي سيخرج به المجمع عما قليل .

واقفل الباب عندما اكتمل النصاب ، ولم ينس ابوها ان يرجمها ، وهو على العتبة ، بنظرة معناها ان المناقشة سرية ، وان عليها ان تنتظر في الحديقة ، وانه سوف يتخذ الاجراءات اللازمة لابلاغها القرار فور صدوره .

وتظاهرت هي بانها تطيع الامر بلا اعتراض ، حتى اذا اطمأنت الى ان الجلسة قد بدأت ، سارعت الى ثقب الباب تلصق به اذنها وقلبها واعصابها .

وتخيلت والدها يسوي طربوشه ، ويقلب جمرات نارجيلته قبل ان يفتتح الجلسة :

ـ يقولون : هم البنات يلاحق الاهل حتى الممات وهذا صحيح .

فيقاطعه الجميع بلهفة :

ـ خير انشاء الله يا بو يوسف .

فيتأوه ابو يوسف ، ويصمت قليلا ، كحكواتي بارع يعرف كيف يشوق جمهوره ، ثم يتابع :

ـ تعلمون بلا شك ان « فريال » قد نالت في اوائل هذا الصيف شهادتها الثانوية ولكنكم قد لا تعلمون انه قد جاءها خلال الشهرين الاخيرين اكثر من نصيب ، فرفضت ، رغم انها قد اتمت منذ اسبوعين عامها الثامن عشر ؟

ويدمدم عمها :

ـ وهل جاءها من يناسبها ورفضت ؟

ويتمتم ابوها بوثوق تمازجه المرارة :

ـ نعم ... نعم !

فتصيح عمتها محنقة :

ـ ومتى كان عندنا بنات يحق لهن ان يوافقن او يرفضن ؟

ويسأل خالها بلهجة ودية مسالمة :

ـ هل هناك من سبب يا ابا يوسف ؟ وهل تريدنا ان نفهم انها واقعة في الحب على غرار بنات اليوم ؟

وسارعت امها تزيل اللبس ، وتوضح الموقف ، وتطرح المشكلة بشكل مباشر ، وبشيء من العصبية المكبوتة :

ـ لم اللف والدوران يا ابا يوسف ؟ لم لا تقول لهم ان البنت رفضت الزواج لانها تريد ان تتابع دراستها في الجامعة ؟

وصاح عمها بذعر :

ـ في الجامعة ؟ يا ساتر يا حفيظ . اتبلغ الرعونة بالنعجة ان تعتقد انها تستطيع العيش مع الذئاب بسلام ؟ أيسمح الدين بان تجلس الفتاة والشاب والشيطان بينهما على مقعد واحد ؟ لا ... لا يا جماعة، ان تقاليدنا العائلية لا تتحمل مثل هذا الانحراف ، ولا تجيز مثل هذا الضلال .

... وتنحنحت خالتها ام وفيق ايذانا بانها ستتكلم ، ولكن « فريال » لم تستطع ان تسمع رأي خالتها ام وفيق ، لان والدها الحريص جدا على سرية المناقشات ، استطاع ان يضبطها وهي تتلصص، فزعق بها زعقة اقتلعتها من مكانها امام ثقب الباب لتحطها في الحديقة وجها لوجه مع طوفان هائل من الانفعالات المختلفة :

زميلتها سميرة دخلت الجامعة ولم يعترض على دخولها احد . وهدى تلعب التنس مع زملائها كل يوم ، فلا تقوم القيامة ولا تتزلزل الارض ، ولا ينتصب الميزان . وسهام ... ابوها معروف بتدينه ، فقد حج سبع مرات وهو ينوي الثامنة ولكنه مع ذلك ، لم يصف دخولها الجامعة بانه انحراف وضلال ، بل انه على العكس ، لا ينفك يباهي ، حين يحمى سوق التفاخر ، بان له ابنة تدرس الحقوق في الجامعة .

وام سعاد ارملة كسيرة الجناح ، ليس في بيتها ظل للرجولة،ورغم ذلك ارسلت ابنتها الى الجامعة لتدرس الصيدلة ، وشعارها الذي تشهره دوما وتبشر به : « البنت الحصينة تحافظ على شرفها ولو القيت بين طابور من الرجال » .

وسميحة ابنة جارهم الفران . نعم سميحة . التحقت بدار المعلمين والمعلمات ، ولم ينثلم شرف العائلة او تتغير اذياله ، ولم يدق النفير وينعقد المجلس العائلي لمواجهة الامر الخطير .

وهالة بنت السمراوي ، زميلتها في صف الكفاءة ، اقتحمت الحياة العملية ، وتعينت مدرسة في قرية نائية ، ولم يحتج احد من ذويها ،ولم يلك احد سمعتها ، ولم يخش احد على النعجة الضعيفة من شرور الذئاب .

هل تذهب في التعداد الى اخر السلسلة الطويلة ؟ وما الفائدة في ان تفعل ذلك بينها وبين نفسها ؟

لم لا يسمح لها بان تجابه العائلة بهذه الامثلة ؟ بل لم لا تقتحم عليهم مجلسهم السري ، وتقذف في وجوههم احتجاجها ، وتعلن امامهم تحررها من رجعيتهم ، من سلاسلهم الصدئة ، من اغلال تقاليدهم ؟

أفلا يحدث ان يعلن « الاستقلال » من جانب واحد ؟ ومتى كانت الحرية تعطى ولا تؤخذ ؟

... وتكاد تصرخ بملء فيها : « انا حرة ... انا سيدة مصيري » ولكنها تتذكر ان طباع والدها لا تطيق الزكزكة ، وان تصرفا احمق من هذا النوع يستفز « المجمع » ويسد في وجهها تلك النوافذ التي ما زال يشرعها لها فارس حبيب شهم ، اسمه « الامل » .

ومن يدري ؟ فقد تنزاح غمامة الهم ، وتحسن العائلة فهم موقفها وينتصر التعقل ،ويتصاعد الدخان الابيض من المدخنة العالية ،ويخرج المجمع من جلسته « التاريخية » بكلمة «نعم » .

وتبتسم فريال للفارس الحبيب الشهم الذي يلوح لها بيده البيضاء

مشجعا وتكاد هي تلوح له بيدها مستبشرة ، ولكنها تتذكر عالمها العائلي المنغلق ، تتذكر فوقعتهم التي يضطربون في داخلها ، تتذكر خوفهم الغريزي من كل جديد ، فتدرك ان فارس الامل اعجز بكثير من ان يطرح شيئا من تطلعاته الطموحة في مدخنة الاحلام ليتصاعد منها ذلك العمود المنتظر من الدخان الابيض .

وتهب في داخلها ريح ثورية هائلة تدفعها بقوة لا تقاوم ، فاذا بها تتلع عنقها الى اعلى ، كجندي متمرس بالنصر ، وتجمع قبضتيها اللتين تحس فيهما فجاة صلابة الفولاذ وتنفخ صدرها الصغير ، وتندفع نحو غرفة الاستقبال مصممة على امر .

وفوجئوا بها بينهم ، فساد الصمت ، وبقيت كركرة الزراجيل وحدها تتجاوب بتقطع ، وحنق ، وعصبية ، وجالت ببصرها في عيونهم جولة استطلاعية خاطفة ، فقرات في بعضها الاشفاق ، وفي بعضها الدهشة ، وفي بعضها تأزم الحيرة .

وبشجاعة استغربت هي من اين جاءتها بادرتهم بلهجة هادئة :

ـ لم صمتم ؟ السكين الحادة في قبضتكم ، وهي ذي الشاة تحت تصرفكم فاسلخوا جلدها ، قرروا مصيرها ، افعلوا بها ما شئتم ! .

فتطلعت امها الى عيني ابيها ستكشف العاصفة ، وغرز ابوها نظراته المندهشة في عيني عمها ، واستنجدت عينا خالها بعيني خالتها ام وفيق ، وهمت ام وفيق بان تفتح فمها ، ولكن فريال قطعت عليها الطريق :

ـ الاخرون يرسلون فتياتهم لغزو القمر ، وانتم تجبنون عن ارسالهن الى الجامعة . الاخرون يحصنونهن بفهم الحياة ، وانتم تحصنونهن بجهلها .

وطيبت ام وفيق :

ـ ولك يسلم هالتم . كلام مثل الدر . مثل العسل .

وتابعت فريال بنفس اللهجة الهادئة :

ـ حرام عليكم ، في بلاد الناس يهيئون الفتاة لان تكون طبيبة او مهندسة او عالمة ذرة ، او استاذا في جامعة ، او اما تصنع بوعي مستقبل امتها ، اما انتم فتريدونها ضلعا كسيرا تدلون عليه دائما بالتفوق والحماية ، والة صماء للتفريخ ، ووعاء للجهل والفراغ ، وقارورة للطيب والسلوى التافهة .

واغرى صمتهم العاجز فريال على الاسترسال ، وتصورت نفسها امام فاحص ضحل الثقافة ، فراحت تستعرض باعتداد وثقة ، معلوماتها المدرسية عن المراة في التاريخ العربي وكيف كانت تشارك الرجال في القتال ، وتنبغ في الشعر ، وتجلس للقضاء ، وانتقلت الى العصر الحديث فراحت تعدد نوابغ النساء وتعطي الامثلة على طموح المراة ، وكانت تكر ببصرها ، بين الفينة والفينة ، لتتفحص وجوه سامعيها وترصد انفعالاتهم ، وتتلمس تاثير خطبتها في نفوسهم ، فيخيل اليها انها ترى في نظرات ابيها رايات استسلام قسري تنشر بحذر ، وفي نظرات عمها قلاع عناد شرس تتهاوى وتتهدم ، وفي نظرات امها وخالتها واختها دموع الحنان والخشية تمتزج ثم تنهمر بصمت كئيب مشفق .

وعندما استنفدت ذخيرتها الكلامية التي تسلحت بها قبل ان تقتحم الحصن ... خشيت ان تكون قد وقعت ضحية خداع البصر وسوء التقدير ، فلربما كانت رايات الاستسلام في عيني ابيها ، والقلاع المتهدمة في نظرات عمها ، خديعة حرب ، لا تلبث ان تتكشف عن ثورة البركان.

ولكن مخاوفها لم تكن في محلها ، فالنظرات التي راحوا يتبادلونها لم تكن تحمل اليها اي نذير ، فهي على ما يبدو نظرات تشاور ، وقناعة يتجاذبها الجبن والارتباك ... وكانت كركرة الزراجيل نفسها تفصح الى حد بعيد ، عن المناخ النفسي السائد ، فلقد كانت هذه الكركرة تتتابع هادئة لا توتر فيها ولا تشنج ولا انفعال .

... واخيرا قطع اخوها يوسف حبل الصمت :

ـ كنت وما ازال في صف فريال ، فما رايكم يا جماعة ؟

وثنت شقيقتها امل وساندها زوجها :

ـ ونحن نوافق على دخولها الجامعة .

وشقل عمها كتفيه في حركة ثعلبية تعبر عن تنصله من المسؤولية:

ـ الرأي رأيها وهي وحدها التي تتحمل النتائج .

وعلق خالها :

ـ فريال طموحة ، ويجب علينا الا نقيم السدود في وجه طموحها!

... واعلنت جدتها لابيها :

ـ اذا كان لا بد من الجامعة ، فلتتذكر فريال ان شرف العائلة يتوقف على سلوكها ، وان سمعتنا امانة في عنقها ، وان عليها ان تصون هذه الامانة .

وهتفت خالتها ام وفيق وقد ايقنت ان اخر الحصون قد انهار :

ـ فريال قد الحمل وزيادة ... مبروك يا فريال .

وتصاعد الدخان الابيض من المدخنة ، وحين نهض الجميع لينصرفوا ظل ابوها على صمته ، وكانت رايات الاستسلام القسري ، ما زالت ، وهو يودعهم ، ترفرف في عينيه ، بتردد وحذر .

... ...

... وكان يوم الجامعة طويلا كالدهر :

العائلة كلها في الدار تنتظر عودة الطائر العنيد الذي تغرب عن سربه ، وهو ما يزال رخص الجناح طري القوادم . والساعة الاثرية في صدر الجدار الغربي توشك ان تعلن الخامسة مساء .

والقلوب كلها عند مزلاج الباب . وتدخل فريال ، فترنو اليها العيون تتفحصها من قمة رأسها الى اخمص قدميها :

أهي فريال نفسها قبل ان تختلط بالجنس الاخر ام ان احتكاكها به اليوم قد ادخل عليها شيئا من التغيير ؟

وابتسامتها أما تزال على براءتها ام ان طيفا من الخبث قد علق بها ووسمها بطابع جديد ؟

وحركاتها ... اما زالت على طبيعتها وعفويتها ، ام ان التصنع قد باغتها ، ليترك عليها اثار بصماته ؟

واذهلها ان تكون هكذا هدفا لعشرات الخدقات المتفحصة ، حتى كادت تعتقد أن تحولا ما قد طرأ عليها ، فانقلبت الى نعامة مثلا ، او سارت على اربع ، او فقدت احد اطرافها او ظهر لها في وجهها الانثوي شاربان عجيبان .

ولكنها لم تلبث ان تذكرت أن هذا اليوم هو يومها الاول في الجامعة ...

ولم يتنفس افراد العائلة الصعداء ولم يكفوا عن تفقد الابنة الغالية ... عضوا عضوا ، الا عندما اطمأنوا الى ان شيئا ما فيها لم يتغير ... والا عندما بشرتهم هي بنفسها انها لم تجد في الجامعة ، والحمد لله ، اي اثر للذئاب ، حتى ولا للثعالب .

احمد سويد

فندق نيو بالاس
ادارة : فتحي نوفل

وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكونكورد بعماد الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 Cairo